



لا يخفى على من يتبع الساحة العلمية والفكيرية أن هناك أموراً كثيرة تحتاج إلى إصلاح وإلى إعادة نظر، وهناك من يتطرق إلى بحوث قليلة الأهمية، وهناك من يضخم بعض الخلافات الفرعية، وهناك من يتوهم وجود الخلاف الحقيقي في خلافات لفظية وشكلية..

1- فبعض الباحثين يبذل جهداً كبيراً في تأليف كتاب يرجح فيه قولًا على قول، وتكون المسألة من الخلافات الفرعية التي يسوغ فيها الاجتهاد والخلاف - سواء أكان الخلاف الفرعي في العقائد أم في الأحكام ... وهو لن يستطيع بترجيحه واجتهاده أن يلغى الخلاف في المسألة، فلماذا لا يقتصر على ذكر أقوال العلماء في المسألة وما تبين له أنه هو الراجح، من غير تشنيع لمن يخالفه فيها، ومن غير أن يضخم الأمر ويجعله كأنه صراع بين الحق والباطل.. فمثل هذه الأمور الخلاف فيها هو خلاف بين راجح ومرجوح، وليس بين حق وباطل.. والإغرار في هذه المسائل الجزئية لا بد أن يؤدي إلى الإهمال في القضايا الكبرى والأكثر أهمية منها..

2- مما يعين على الإنصاف عدم الاقتصار على أخذ الكلام من الخصوم:

كثيرون ممن يتحدثون عن الفرق أو المذاهب أو الأشخاص يبتعدون عن الإنصاف؛ لأنهم يقعون ضحية لتشويه الخصوم لهم، ولا ينظرون نظرة مستقلة في كلام من يتحدثون عنهم.. ولو ابتعد هؤلاء الناقدون عن تقليد بعضهم لبعض، ونظروا في كلام من ينتقدونهم، وسمعوا الكلام منهم، ولم يقتصروا على السمع عنهم، لأدركوا كم كانوا بعيدين عن الحقيقة، التي كانوا يحسبون أنفسهم مدافعين عنها!

3- مما يعين على الإنصاف الجمع بين الدقة وسعة الاطلاع:

فالدقة وحدها لا تكفي مع قلة الاطلاع، وكثرة الاطلاع لا تجدي مع عدم الدقة، فلا بد من التوازن والجمع بين الأمرين: التدقيق في الكلام وسعة الاطلاع.. لأنَّ كثيراً من يفقد الموضوعية والاتزان، ينقصه إما الدقة أو سعة الاطلاع أو كلاهما.. وأساس العلم: الدقة، وعمق الفهم.

4 مَنْ يتكلّم بعلمٍ وإنصافٍ وأدبٍ، تجد كلامه مقبولاً عند الكثير من أتباع المذاهب والاتجاهات، إلا مَنْ كان متعصباً منهم.
وبهذا تكثُر الاستفادة من المنصف، خلافاً للمتعصب الذي يكون تأثيره غالباً داخل مذهبه أو جماعته فقط. فضلاً عن
الخصومات والمعارك والعداوات التي كان هو سبباً فيها بتعصبه وضيق نظره..

5 الانضباط بالعلم والاحتكام إلى الحجة والبرهان:

ما على مَنْ كان منضبطاً بالعقل والعلم، ومحتكماً إلى الحجة والبرهان، وبعيداً عن التعصب أن يكون منضمًا لأي جماعة أو
منتسبياً لأي مذهب، ما دام داخلاً في دائرة الإسلام.. فهو باحتكامه إلى العلم سيأخذ الحقَّ أَنَّى وجَدَه، وسيترك الخطأ متى
عرَفَه..

أما المتعصبُ والمتطرِّفُ، فانتسابُه لأيِّ مذهبٍ أو جماعةٍ سيجعله متبَّناً ومدافعاً عن كلِّ ما عندهم من خطأً أو صواب..

6 عندما تَرُدُّ على الأفكار وليس على الأشخاص، تُبعِدُ نفسَكَ عن أيِّ بغيٍ أو فجورٍ في الخصومة، ولا يستطيع أحدٌ أنْ يتهمك
أنَّ دافعَك هو الغيرة والتخاصد.. ويكون كذلك الرَّدُّ شاملًا لكلِّ من يقول بذلك الكلام ولا يقتصر على واحدٍ بعينه. وكذلك إذا
تراجع الآخر عن كلامه لا تذهب قيمة كلامك؛ لأنَّه ليس موجهاً إلَيْه بالذات وإنما إلى الفكرة.

7. الإسلامُ دينُ اللهِ تعالى، فليس لإنسانٍ أنْ يُحَكِّمَ هواه ومزاجَه في حديثه عن الدين أو بيانه لأحكامه، وأهواءُ الناسِ قد تميل
نحو التشديد أو نحو التيسير.

فالأمرُ الذي جعله الله مكروراً بإجماع العلماء، لا يجوز لأحدٍ أنْ يحرِّمَ احتياطاً للدين. وكذلك الأمر الذي جعله الله ظنياً، لا
يجوز لأحدٍ أنْ يدعِي أنه قطعيٌ لا يقبل الاختلاف.

وما جعله الشرعُ صغيرةً من الصغائر لا يجوز ادعاء أنه من الكبائر.. وهذا الكلام قد يبدو بدھياً عند التنظير، إلا أنَّ هناك مَنْ
تضيق نفوسُهُم بسعة الدين، ويأبون إلا أنْ يحکِموا أهواءهم وأمزاجهم، فلا تكون موازينُهم منضبطةً بشرع الله تعالى.

8. من تعاليم الإسلام الولاءُ والبراءُ، والمحبةُ في اللهِ والبغضُ في اللهِ، فلماذا لا يعرف بعضهم إلا البراء والبغض في اللهِ، ولا
يوجد عندهم موضع للولاء والمحبة في اللهِ.. ومنْ منهج المحدثين الجرحُ والتعديل، وليس الاقتصار على الجرح، مع التزامهم
بشروط ذلك وآدابه.

فلماذا يقتصر البعض على الجرح ويترون التعديل، ولا يلتزمون بأحكام ذلك وآدابه..

9. كلما سمعوا نقداً تساؤلوا:

1. لماذا في هذا الوقت؟

2. من وراء هذه الحملة؟

3. لماذا يتوجه النقد إلينا وليس إلى غيرنا؟

والجواب:

1. النقد ليس له وقت محدد.

2. ينبغي أن يكون الاهتمام بالأفكار وليس بالأشخاص.

3. للحرص على تطويركم وتقدمكم.

فالنقدُ البناءُ هو دليل المحبة والوفاء، وليس علامة على الكراهية والجفاء..

10. من أسباب الخلافات اللغوية:

كثيرٌ من الخلافات عند التحرير والتدقيق يتبيَّن أنها خلافاتٌ لفظيَّة، لا يترتب عليها اختلافٌ حقيقيٌّ.

ومنْ أهمِّ أسباب وجود هذه الخلافات اللغوية:

عدُّ تحرير المصطلح بشكل دقيق.. فتراهم يختلفون في الأمر، وكلُّ منهم له مفهوم مختلف عن الآخر لذلك المصطلح! فهناك

من ينكر دليل (الاستحسان) لأنَّه يحسب أنَّه استحسان بالرأي من غير ضابط ولا دليل. وهناك من يعتبر الاستحسان دليلاً مقبولاً، ويرى أنَّه العدول بحكم المسألة عن نظائرها لدليل خاص أقوى. أو أنَّه عدول عن قياس جلي إلى قياس خفي، فيكون الاستحسان هنا نوعاً من القياس لكنه ليس قياساً جلياً ظاهراً.. وكذلك الأمر فيما ينكر المجاز في اللغة العربية، فالذين يثبتون المجاز وهم أكثر العلماء، يعرِّفونه بأنه استعمال اللفظ في غير ما وضع له في أصل اللغة.

لكن الذين أنكروا المجاز قالوا:

اللفظ في أصل اللغة يستعمل في هذين المعنين، فلهذا لا يجعلون استعماله في المعنى الآخر من باب المجاز.. فالفرقان أثبتو المعنى نفسه، لكن أحدهم اعتبره حقيقة لأنَّه يرى أنَّ اللفظ يستعمل في أصل اللغة في هذين المعنين، والآخرون اعتبروه مجازاً لأنَّهم يرون أنه استعمال للفظ في غير ما وضع له في أصل اللغة.

فالخلاف بين الفريقين لفظي وليس خلافاً معنوياً، فلا يوجد اختلافٌ جوهريٌ بين الفريقين..

11. يحسب أحدهم أنه استطاع بحنته وخبرته أن يقرأ ما وراء السطور، وهو لم يفهم حتى ظاهر السطور! فقد استطاع أن يتهم الآخر باتهامات كثيرة من خلال فهمه لما وراء السطور، ولم يستطع من قراءته لمنطق كلامه أن يصح لنفسه هذه الظنون الخطأة..

وكانه لم يعلم أنَّ المنطق مقدماً على المفهوم، وأنَّ الأصل هو براءة الذمة، فالبراءة هي اليقين، وما ثبتَ باليقين لا يزول بالشك..

12. من صور اختلال الموازن واضطرابها:

أ - يطالبه أن يكون ملكاً عندما يكون هو شيطاناً! فينسى ويترك أقل ما يجب عليه، ويتنكر ويطالب الآخرين أن يؤدوا له أعلى الحقوق.. لهذه الدرجة تصل الأنانية عند بعض الناس، فلا يرون إلا أنفسهم وما لهم من الحقوق، وما عدا ذلك فلا يعنيهم شيء..

ب - عندما ينتقد أستاذه أو أحداً من جماعته أو مذهبه، تراه في غاية اللطف والأدب، ويتأول له الأعذار الكثيرة، ويبين أنَّ هذا الخطأ ليس إلا زلة مغمورة في بحر حسنته.. لكنه عندما ينتقد من يخالفه في المذهب أو الاتجاه تذهب هذه اللغة اللطيفة أدراج الرياح، ويُطعن في دينه وعِرْضِه بأمضى الرِّمَاح، ولا يترك للمحبة والصلاح مكاناً ولا موضعًا يستقر فيه.. فهذا الصنف يُحَمَّدُ له أنه ينقد أموراً في اتجاهه ومذهبه ولا يقتصر على نقد غيرهم من الاتجاهات الأخرى، إلا أنه ينقصه أن يكون نقه للاتجاهات الأخرى بنفس الأسلوب اللطيف الذي يفعله مع اتجاهه. فيكتفيه من الإنفاق أن ينقد الآخرين بنفس اللهجة التي ينقد فيها شيخه وأستاذه.. ج - يرضون لأنفسهم أن يكونوا من (الخوارج) مع العلماء والدعاة وعامة المسلمين، فيسارعون بتضليلهم وتفسيقهم عند أدنى خلاف ولو كان معتبراً وسائغاً.. ولكنهم يكونون (مرجئة) مع الحكام الظالمين، فمهما أجرموا وأفسدوا، سكتوا عن كل ذلك، بل قد يبررون لهم هذه الجرائم..

لماذا اختلفت موازنيهم بين الحكم وغيرهم؟

فإما أن يكونوا متسامحين متساهلين مع الجميع، أو متشددين معهم كلهم..

13. يأتي بعضهم بـ**اللفاظ عائمة وعبارات فضفاضة، ولا يشرح مقصوده ومراده بشكل واضح ودقيق**، حتى إذا جاءه من يحاوره في كلامه ويلزمه به، استطاع أن يتنصل من كلامه ويخرج منه ولا يتحمل عاقبته.. فهو لهذا لا يحب الواضح والصراحة، ولكنه يحب الغموض والضبابية في التعبير..

أما أصحاب المبادئ فهم حريصون على إيصال رسالتهم بأوضح طريقة وأيسر سبيلاً حتى يفهمها أكبر عدد ممكن، وهم مستعدون لتحمل تبعاتها ونتائجها مهما كانت كبيرة..

14. ما أُحوجَ الباحثَ إلى الشجاعةِ الأدبية، - وهي أنْ يقولَ الإنسانُ ما يعلمه منَ الحقائق أو ما توصلَ إليه اجتهاده، من غير

خوف ولا مداهنة لأحد من الناس - ، وهذه الشجاعة الأدبية ليست أقل أهمية من الشجاعة في الحروب والمعارك! فالشجاعة الأدبية قد تستجلب أعداء كثرين يحاولون الإساءة إلى قائل ذلك الكلام. وبالشجاعة الأدبية يَعْرُفُ النَّاسُ الحقيقةَ بشكلٍ واضح ولا تلتبس عليهم الحقائق.

وإذا عرفوا الحقيقة على ما هي عليه استطاعوا أن يجعلوا سلوكهم سليماً، فالـ**الفَكْرُ السَّلِيمُ** هو الطريق إلى السلوك السليم.
وكثيرٌ من الانحرافات السلوكية سببها:

الانحراف في الفكر والمفاهيم عند الإنسان.. فالمصيبة التي تحدث كثيراً أنْ يَعْرُفَ أَنَّاسٌ الحقيقة ولا تكون عندهم الشجاعة لقولها، ويكون عند آخرين الشجاعة ولكن ليس عندهم الحقيقة، فتضييع الحقيقة بين عالم بها وخائف من قولها، وبين شجاع ولكنه جاھلٌ بها! فخير الناس من اجتمع عنده: - سلامه القصد - ومعرفة الحقيقة - والشجاعة لذكرها..

15- متى رأيت باحثاً أو عالماً قد كثُرَ أعداؤه والمحاملون عليه، فاعلم أنه بعيد عن التعصب لجماعته أو منهبه، وأنه لا يفعل إلا ما يملئه عليه ضميره، ولا يقول إلا ما وصل إليه اجتهاده، ولكل قاعدة استثناء - فما أكثر الكارهين للنقد والإصلاح، وما أكثر العاشقين لتعصُّبِهم وأخطائهم..

16- تلاميذ المصلحة: **يلوم الناس كثيراً (أصدقاء المصلحة):** لأنهم يصادقون الآخر لالتقى مصلحتهم منه فقط، ولا يحبونه محبة صادقة، فـ**فيَظَهُرُ زَيْفُ مَحْبَّتِهِم** عند أول اختبار وامتحان.. ولكن هناك أيضاً فريق آخر هو أحق باللوم منهم، وهم (تلاميذ المصلحة)، الذين يريدون من أستاذهم أو شيخهم أنْ يوافقهم في آرائهم، فإذا تكلم بما يخالفهم هجروه وناصبوه العداء..
نعم لا مانع أن يختلف أحد مع أستاذه، لكن أن يكون ذلك مع الاحترام والتقدير له ولرأيه، أما من يعادى لأجل هذا الاختلاف فهو من (تلاميذ المصلحة).. وهو أسوأ من أصدقاء المصلحة؛ لأنهم قاموا بمعاداة من له فضل عليهم، وتنكروا له لمجرد الاختلاف اليسيير، وقد يكونون هم المخطئين في رأيهم..

17- السبب في سعة العلم مع ضيق العقل والنظر:

عندما من الثقافة والاطلاع الشيء الكثير، لكن هذه الثقافة لم تجعلهم على قدر كبير من الانفتاح وسعة العقل وبُعد النظر، بالقدر الذي يتاسب مع ذلك العلم.. وذلك لأنهم أحاطوا أنفسهم بأسوار وسياجات كثيرة، وجعلوا حدودها ضيقة، واعتبروها قطعية لا تقبل الاختلاف أو إعادة النظر فيها.. فأصبحت هذه السياجات سداً منيعاً يحول دون الاستفادة من زيادة العلم.

18- الجمع بين النصوص والمقاصد:

هناك من يأخذون بالنصوص بعيداً عن فهمها والنظر في مقاصدها، وهناك من ينظرون في المقاصد ولا يهتمون بالنصوص.. ولا بد من الجمع والتوازن بين الأمرين، فالنصوص تؤخذ مع النظر في مقاصدها، والمقاصد تستند إلى النصوص وتؤخذ منها.. فالأخذ بالنص من غير فهمه فهماً سليماً ليس أقل ضرراً من تركه؛ لأنه ينسب إلى النص معنى غير صحيح، وقد يسيء إلى الإسلام بذلك الفهم المغلوب. فمعنى النظر في النصوص والمقاصد: هو النظر في مجموع الأدلة وليس الاقتصر على دليل واحد وترك غيره من الأدلة، فالأخذ بالمقاصد ليس تركاً للأدلة لأن المقاصد لها أدلة من القرآن والسنة والإجماع والقياس وغير ذلك..

19- الرأي والفكر لا بد أن ينضج على نار هادئة:

بعض الكتابات مثل القهوة المُرّة، فهي شديدة التركيز، لا يستطيع الإنسان أنْ يشرب منها الكثير.. وهي كتابات مُنْبَهَة مثل القهوة أيضاً، تُبَعِّدُ الإنسانَ عن النوم، وتوقظه من السُّبُّات العقلي والفكري.. وحتى تُعدَّ هذه القهوة بشكل جيد لا بد أن تبقى فترة على نار هادئة.. وكذلك الرأي والفكر حتى يكون سليماً قوياً عميقاً لا بد أن ينضج على نار هادئة، ومن أكبر الأخطاء: التسرع في إطلاق الأحكام وفي استنتاج الأفكار واكتشافها..

إياكم واحتكار العلم والجحود على الناس في الاستفادة منه.. أنتم أصحاب مبادئ، تفرحون وتسرتون كلما انتشرت الفائدة وعممت الآخرين.

أنتم تعلمون أن الله هو الرزاق، فنشركم للكتاب إلكترونياً لن ينقص من أرزاقكم شيئاً، بل سيبارك الله لكم بفضله.. لا مانع من بيع الكتاب والاستفادة منه، لكن هذا لا يعني أن يحتكر هذا العلم ويمنع غيره من الاستفادة منه بأي وجه آخر.. ونشر الكتاب في النت لن يحول دون شراء الكتاب من آخرين، فهناك من لا يقرأ إلا في النت ولا يشتري شيئاً من المكتبات، وهناك من لا يحب إلا الكتاب الورقي فيشتريه حتى مع وجوده في النت.. فلكل طريقة في النشر من يميل إليها.. فلا ينبغي لباحث أن يغضب لأن أحداً قد نشر كتاباً له على النت مثلاً، بل ينبغي أن يكون هذا مدعاه لغبطته بذلك..

ائمة الإسلام الكبار الذين غمرتنا بكتبهم وعلمناهم لم يأخذوا مقابلـاً مادياً على أعمالهم العظيمة.. هل أخذ الإمام الطبرـي مثلاً على كتبـه أجراً مادياً أو الإمام الغزالـي أو الإمام النووي أو الحافظ ابن حجر، أو الإمام ابن قدامة، وغيرـهم الكثـير.. صحيح أن الزـمن اختلفـ، لكن المبادـئ السـامية لم تختلفـ.. الأنبياء عليهم الصـلاة والسلام كانـ شـعارـهم: (قـلْ لَا أَسـأـلُكـمْ عـلـيـهـ) (وـيـا قـوـمـ لـا أـسـأـلـكـمـ عـلـيـهـ مـاـلـاـ إـنـ أـجـرـيـ إـلـاـ عـلـىـ اللـهـ). (يـا قـوـمـ لـا أـسـأـلـكـمـ عـلـيـهـ أـجـرـيـ إـلـاـ عـلـىـ الـذـي فـطـرـنـيـ أـفـلـاـ تـنـقـلـوـنـ).

وصلـى اللـهـ عـلـىـ سـيـدـنـاـ مـحـمـدـ وـعـلـىـ آـلـهـ وـصـحـبـهـ وـسـلـّمـ تـسـلـيـمـاـ كـثـيرـاـ وـالـحـمـدـ لـلـهـ رـبـ الـعـالـمـينـ.

المصادر: